لماذا نهتم بتراثنا الإسلامي؟

بقلم: محمد عبدالله السمان

□□ مدخـــــل ..

□□ مما لا جدال فيه ، ان تراث الفكر الإسلامي يتمثل اليوم في قضية ذات أهمية خاصة ، يجب ان تهب لها كل عنايتنا ، وتمنحها كل اهتماماتنا ، لا لأنها - فحسب - تمثل جزءاً مهماً لا يمكن الاستغناء عنه من تاريخنا ، ولا خير في امة تجهل تاريخها او تتجاهله ، بل لأن هذه القضية ايضاً ، تمثل حضارة الفكر الإسلامي الاصيل ، التي تفوقت على سائر الحضارات الإنسانية ، السابقة واللاحقة معاً .. □□

إن التراث الفكري الاسلامي هو الذي يؤكد أن الاسلام في جوهره دعوة إلى التقدم ، ويعتبر مصدراً رئيسياً في بناء الحضارة البشرية ، وإن عنايتنا بهذا التراث كماً وكيفاً ، لابرازه في الصورة اللائقة بالاسلام ، هي التي ترد على المتشككين في حضارة الفكر الاسلامي من المبشرين والمستشرقين ، وتلامذتهم من ابناء المسلمين أنفسهم ..

بل إن عنايتنا بتراثنا هي التي تصحح مفهوماً خاطئاً عن الاسلام ، مؤداه : أن الاسلام كان لفترة مضت ، ولم يعد بعد - صالحاً - في حاضرنا اليوم - إلى مسايرة الحضارة ، فضلاً عن ان يكون صالحاً للاسهام في بنائها او في تنميتها ..

ويرد أستاذنا الدكتور محمد البهي على مثل هذا التجني على الإسلام ، فيصف أصحابه بأنهم - في هذه النظرة - لا ينصفون الاسلام ، **وقد ثبت بانه مصدر رئيسي في بناء الحضارة الانسانية** ، ولا ينصفون انفسهم ، لأنهم يقلدون غيرهم من أصحاب النزعة الاستعمارية ، الذين يرون أن الاسلام نشأ في الصحراء ، وقام به دعاة من العرب ، والصحراء ليست أرضاً خصبة للحضارة ، والعرب لم يكونوا أهلاً في ذلك الوقت لحمل الحضارة ، ثم يقول الدكتور البهي :

« **وغرض اصحاب هذه النزعة الاستعمارية - كما نفهم جميعاً - إبعاد العرب عن امجاد تاريخهم الماضي ، وقطع صلتهم بالقيم ، وبالرسالة التي حملوها ، واشاعوها بين البشرية ، وأسسوا بها حضارة عربية إسلامية ، أسهمت ، وما تزال تسهم حتى هذه اللحظة في البناء الحضاري المعاصر ..** » إلى ان يقول : « **فلا صحراء العرب لها دخل في تقييم الاسلام ومبادئه ،**

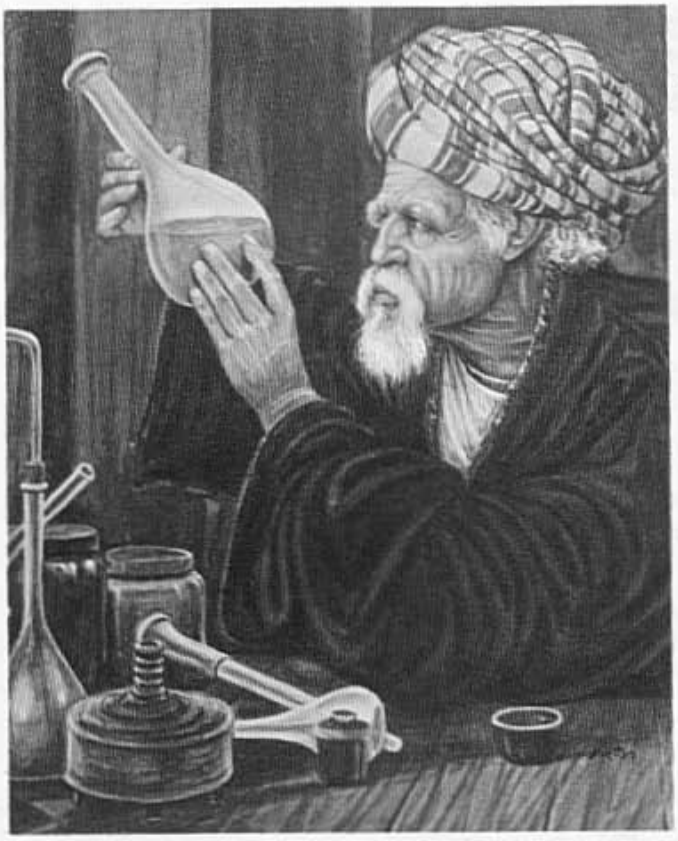

□ العلمـاء المسلمون : تـراث الفـكر الاسلامي لم يكن قاصراً على العقيدة والشريعة والاخلاق كـان يُمثـل الاسلام بشموله للحياة □

□ إن الاســـــلام جـــاء منظماً للسلوك العـــام للانسانية في شتى نواحي نشاطها الحيوي

□ إن مكتبة المستشرق اليهودي المجري ، جولد تسيهر ، التي اوصى بها للجامعة العبرية في فلسطين المحتلة تتضمن بضع مئات من مخطوطات التراث الاسلامي .

□ لا يختـــار من التراث إلاّ ما يشرّف الفكر الاسلامي ويحقق للمسلمين خيراً في حياتهم المعاصرة وما ينير طريق المعرفة الاسلامية الصحيحة للأجيال القادمة .

ولا جاهلية العرب لها صلة بهذه المبادىء » .

تراثنا .. الثروة المهملـــة

مما لا يقوى إنسان على انكاره ، ان لدينا ثروة طائلة من تراث الفكر الانساني في شتى مجالات الحياة : العقيدية ، والتشريعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، وغيرها لكن هذه الثروة الطائلة ، اهملناها ، إذا نحن قسنا الأمور على ما يجب ان تكون العناية ، وان يكون الاهتمام ..

إن الكثيرين منا يتوهمون ان تراث الفكر الاسلامي ، يكاد يكون قاصراً على العقيدة والشريعة والأخلاق ، ولا شان لهذا التراث بجوانب الحياة الأخرى ، وهذا وهم لا يقوم على أساس ، وقد تبنى هذا الوهم خصوم الاسلام من المستشرقين والمبشرين ، وتلامذتهم من المسلمين الذين نهلوا من معارف الغرب الصليبي أو الشرق الإلحادي ، هذه المعارف التي لليهود دور اساسي في صياغتها ..

والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها كما يقول الدكتور **محمود فياض** ـ رحمه الله ـ وكان استاذاً في كلية اصول الدين بجامعة الازهر ـ هي أن الاسلام ، جاء منظماً للسلوك العام للانسانية ، في شتى نواحي نشاطها الحيوي ، لهذا نجد علماء العقيدة « المتكلمين » يتحدثون عن الله وصفاته ، كما يتحدثون عن الخلافة والرياسة ، وقواعد الحكم ، وإذا جئت إلى الفقهاء ، وجدتهم يتحدثون عن الطهارة والصلاة والحج ، او البيوع والرهن والإجارة .. إلى جانب ذلك تجد حديثهم ايضاً ، عن الحكم والقضاء والشهادة ، والسياسة الشرعية ومقتضياتها ..

ويرد الدكتور فياض على افتراء المغرضين القائل : **إن الاسلام جاء خلواً من المبادىء السياسية والدستورية ، اللازمة لسعادة الناس وتنظيم حياتهم في كل امة متمدنة ، بدليل ان علماء الاسلام لم يشتغلوا بالبحث السياسي ، وليست لهم فيه مؤلفات سياسية فيقول :**

« لو لم يكن لدينا ـ نحن المسلمين ـ سوى بحوث المتكلمين والفقهاء في السياسة ، وهم شراح الاسلام ، لكان ذلك وحده كافياً في الجزم بظلم هذه المقالة الظالم اهلها .. ولكن لدينا بحوث سياسية ودستورية كاملة مستقلة .. ولدينا مؤلفات سياسية لها قيمتها ، وخطورتها في توجيه السياسة الداخلية للدولة ، والسياسة الدولية على وجه العموم » .

هذا وقد ذكر **الدكتور فياض** العديد من المؤلفات الاسلامية التي يعتز تراثنا بها ويفخر ، بالإضافة إلى بعض المخطوطات من تراثنا والتي لا تزال في مكتبات أوروبا ..

وللجانب الاقتصادي ـ والاقتصاد اليوم عصب هذه الحياة ـ مكانة مرموقة في تراث الفكر الاسلامي ، وهذا ما لا يتصوره خصوم الاسلام وتلامذتهم ، وبخاصة ذوو الميول الماركسية ، إن الكثير من الفكر الاقتصادي عند العلماء المسلمين ، لم يكشف عنه النقاب بعد ـ كما يقول الأستاذ **السيد محمد عاشور** ـ لجهل علماء أوروبا أو تجاهلهم ، عما تحويه الكتب العربية من نفائس من ناحية ، ولتقصيرنا ـ **نحن العرب** ـ في البحث عن تراثنا المجيد » .

هذا ، وقد سجل الاستاذ عاشور في مؤلفه : « **رواد الاقتصاد العـرب** » خلاصة افكار زهاء ثلاثين مفكراً في الاقتصاد الاسلامي ، كذلك افرد مؤلفاً خاصاً بدراسة الفكر الاقتصادي العربي ، من خلال دراسته عن « **ابي الاقتصاد** » ابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ، من علماء القرن السادس الهجري ، قال في مقدمته : « **كنا خلال دراستنا الجامعية لشؤون الاقتصاد نستمع إلى محاضرات عديدة ، ونرجع إلى كثير من المراجع الأجنبية ، ونلتقي في ندوات علمية مختلفة .. فتكون مادة الحديث في كل هذه المناسبات مقصورة على آراء وعلماء الغرب ، القدامى والمحدثين ، ولا نكاد نجد اثراً في هذا الميدان للعلماء العرب ، مع كثرة ما طرقوه من العلوم والفنون ، وكثرة ما تركوه من مؤلفات وبحوث تفيض ـ حتى اليوم ـ بذخائر علومهم ، وتشهد لهم بالقدح المعلى في كل ما تناولوه ، إذاً فلدينا ـ نحن المسلمين ـ ثروة طائلة من تراث الفكر الاسلامي الانساني ، ولدينا أعلام المفكرين في شتى العلوم والمعارف والفنون ، ولكن الذي يحز في النفس ، اننا لم نؤد الواجب كما ينبغي تجاه هذه الثروة الطائلة ..**

مشكلـة الإختيـــار .. وازمـــة المحققـــين

قد يقـــال :

إن إحياء التراث الإسلامي لم يتوقف وهناك هيئات رسمية وشبه رسمية ، وغير رسمية ، تمارس انشطة كثيرة لإحياء تراثنا ..

ونحن نرى : ان ما بذلناه حتى اليوم حيال تراثنا ، هو في رمته ـ دون تمحيص ـ جهد المقل لا أكثر ، وحسب القارىء أن يعلم ، ان مكتبة الأزهر العتيقة ، والآيلة منذ اعوام للسقوط ايضاً ، تضم اكثر من ثلاثين الف مخطوطة ، وما تزال معرضة للتلف ، وما هو شر من التلف ، وان مكتبة

إلى أين

تراثنا الإسلامي

□ جابر بن حيان □

□ ابن رشد □

□ الرازي □

المستشرق اليهودي المجري الأصل .. « جولد تسيهر » التي أوصى بها للجامعة العبرية في فلسطين ، كانت تتضمن بضع مئات من مخطوطات التراث الإسلامي ..

أقول إن ما أديناه نحو تراثنا حتى اليوم ، لا يمثل إلا جهد المقل ، ما أديناه برمته ـ بلا تمحيص ـ باعتبار « الكم » أما باعتبار « الكيف » فإن ما بذلناه يبعث على كثير من الخجل .. إن كثيراً مما أحييناه ، منسوب إلى الفكر الاسلامي الأصيل ، على اعتبار التجاوز عن الحقيقة ، **وعلى الأخص فيما يتصل بالتصوف** من قريب أو بعيد ، بل إن كثيراً مما هو منسوب زوراً إلى التراث الاسلامي ، أحرى به أن يدفن إلى الأبد ، اخذاً بالحكمة التي تقول « **إذا بليتم فاستتروا** » والأمثلة تفوق الحصر ..

وهنا تبرز مشكلة «**الاختيار**» من تراثنا لاحيائه ، والاختيار صعب للغاية ، إذ لا يكفي أن يكون من يختار عالماً فذاً متخصصاً ، بل لابد ـ ايضاً أن يكون على اكبر قدر من الأمانة العلمية ، ومن يقظة الضمير معاً ، بحيث لا يختار إلا ما يشرف الفكر الاسلامي ، وما يحقق للمسلمين خيراً في حياتهم المعاصرة ، وما ينير طريق المعرفة الاسلامية الصحيحة للأجيال القادمة ..

وقد يكون حل مشكلة « حسن الاختيار » امراً اساسياً ، ولكنه لا يكفي ، بل لابد أن نحل مشكلة اخرى جديرة بالاهتمام ، إنها مشكلة « ازمة المحققين » .

لقد قيل : **إن العلم هو التحقيق ، وليس مجرد التاليف ، وليس كل عالم يصلح ان يكون محققاً** ، وهذا يصور حجم المشكلة التي نحن بصددها ، لأن التحقيق يحتاج من المحقق إلى كثير من الصبر والمعاناة ، دون أن يحسب حساب الزمن ، ثم إن التحقيق ليس ـ **فحسب** ـ علماً غزيراً وسعة اطلاع ، بل هو ـ في المقام الأول ـ دراية وخبرة ..

لا شك أن لدى العالم الاسلامي علماء محققين ، ولكن الذي يدعو إلى الأسى انه كلما لحق بربه أحدهم لم يخلفه غيره ، وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ توفى كل من العلامة **الشيخ رشيد رضا ، واحمد تيمور ، واحمد زكي شيخ العروبة** ، ورحل عن مصر ايضاً الشيخ **احمدمحمد شاكر** والسيد/ **محب الدين الخطيب** ، والشيخ **محيي الدين عبد الحميد** ، والشيخ **عبد الوهاب عبد اللطيف** ، والأخير حجة في تحقيق الحديث النبوي ، عاش عالماً مغموراً ، وكان استاذاً في كلية الشريعة بجامعة الازهر وكما عاش مغموراً ، مات ايضاً مغموراً ، وفي صمت ، لم تحس بموته الدولة فضلاً عن الأزهر ، الذي كان أحد علمائه ، وكل من هؤلاء العلماء المحققين ، يليق به قول شاعر النيل **حافظ إبراهيم** ، في رثاء الإمام محمد عبده :

رَفَعْنَا إلى الأيَّام بَعْدَكَ رَاحَنَا
فَرُدَّت إلى أعْطَافِنَا صَفَرَات

امثال هؤلاء العلماء كانوا يؤدون للأمانة العلمية حقها ، ولم يكن لعامل الزمن أدنى حساب في عملهم ، إذ كل ما تصبو إليه انفسهم ، هو أن يخرجوا للناس عملاً جيداً ، ولقد سمعت من الدكتور **محمد حسين الذهبي** ـ رحمه الله ـ انه مكث عدة أعوام في إعداد كتابه المعروف : « التفسير والمفسرون » ـ وقد توهم بعضهم ان الكتاب تاليف ، والواقع انه تحقيق علمي لاتجاهات المفسرين ومذاهبهم ـ والمهم أن هذا العالم الجليل كان يدرك مهمته ، فهو يقول في مقدمته : « ورجوت من هذا العمل أن أنبه المسلمين إلى هذا التراث التفسيري الذي اكتظت به المكتبة الاسلامية ، على سعتها وطول عهدها ، وإلى دراسة هذه التفاسير على اختلاف مذاهبها وألوانها .. ورجوت ايضاً أن يكون التفسير من وراء هذا المجهود ، موسوعة تكشف لهم عن مناهج اشهر المفسرين وطرائقهم التي يسيرون عليها في شرحهم لكتاب الله تعالى » .

نطاول في ميدان التحقيق ..

كما يوجد في عالم التاليف طفيليات ، كذلك توجد هذه الطفيليات في عالم التحقيق ، تمثل خطورة اشد لأنها تتوهم أن تخريج الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والتراجم لأعيان النص التراثي هو التحقيق ، وتجهل أن التحقيق العلمي للتراث لا يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى تحقيق الآراء ذاتها ، تلك التي وردت في هذا النص ، وليت المسألة ـ أو المأساة ـ تقف عند هذا الحد ، فأحياناً تبلغ حد الاستخفاف بعقلية القارىء في مغالطة جريئة ، واكتفي هنا بضرب مثلين اثنين :

الأول : **كتاب منسوب إلى احمد الرفاعي شيخ الطريقة الصوفية ، وقد كتب على غلاف الكتاب : « تحقيق فلان » وبتصفح الكتاب يتضح أن المحقق لم يزد على النص اي شيء يذكر ، بل إن المقدمة عن الكتاب كتبها غيره** ..

الآخر : **كتاب منسوب إلى عبد الوهاب الشعراني** ، الصوفي المعروف في القاهرة ، صفحاته معدودة ، ولكن محققه وهو شاب يحمل الدكتوراه من الأزهر ، ويدرس في جامعته ، جعل الصفحات المعدودة ثلاثة مجلدات ، في زهاء الفي صفحة من القطع الكبير ، ويعلم الله وحده أن كتاب الشعراني نفسه يعتبر إساءة بالغة إلى التراث الاسلامي ، لكن كيف استطاع المحقق أن يحول صفحات

□ من اعلام المفكرين في شتى العلوم والمعارف والفنون □

□ الفارابي □

معدودة ، ومن الفكر الدخيل على الفكر الاسلامي ؟!. المسألة في غاية البساطة ، لقد أضاف المحقق إلى النص رسالته في الدكتوراه برمتها ، بنفس علامات ترقيمها ، وكذلك أضاف صفحات عديدة منقولة بحذافيرها من كتب صوفية أخرى ..

عـــــود على بـــدء ..

إن أمامنا ما يسمى بأزمة التراث الاسلامي ، ولهذه الأزمة ثلاث شعب :

الأولى : **تتصل بمسألة تنقية هذا التراث ، مما هو دخيل عليه ، سواء أكان بايدينا ـ بحسن نية بالطبع ـ أو بايدي خصوم الاسلام ، بسوء قصد ..**

الثانية : **البحث عن علماء محققين متخصصين ، نوفر لهم كل الوسائل المادية والأدبية ، بحيث يكونون متفرغين لهذا العمل ، ومسؤولين عنه تاريخياً وادبياً ..**

الثالثة : **الاهتمام بتحقيق الاصيل من هذا التراث ، وإخراجه إلى القارىء المسلم ، في صورة جذّابة مرضية ،** وبثمن أقرب ما يكون إلى العدل ، وعدم الإرهاق .. والأزمة لا تواجه بعمل فردي ، ولا بالاعتماد على دور النشر الخاصة التي يهتم معظمها بعامل الربح ، وإنما تواجه الأزمة بمؤسسات وهيئات جادة لا تقف عند حدود رفع اللافتات ..

أليس مما يدعو إلى الأسى الممض ، ان تنشأ جمعيات لإحياء تراث الفنانين والمغنين ، وتتلقى مثل هذه الجمعيات معونات من الدولة ، ومن بعض اثرياء المسلمين .

بينما لا تجد مثل هذه الجمعيات لإحياء تراثنا الاسلامي ، وقد يقال : إن هناك جمعيات كثيرة لإحياء التراث الاسلامي .. والرد على هذا القول ، بأن هذه الجمعيات ما تزال تراوح في مكانها ..